الشيخ مرعي صبيح

قصة مصرية

كان الشيخ مرعي صبيح من صفط الشوق بمديرية الجميرة طويل القامة اسمر اللون مقسم الوجه هادئ النظرات يملك خمسمائة فدان ورث معظمها عن والده وزاد التركة باجتهاده . قضى صباهُ ورجولتهُ في قريتهِ وهي دائرة من بيوت مبنية بالآجر والتاب لقطنها مائتا عيلة ومركزها بيت الوسية وبها مكتب ومضيفة ومطحنة وحوانيت لعطّار وبدّال وحلاق وطرقها مظللة باشجار الجميز والنكافور وفي الجهة الجنوبية منها نصب جماعة من العرب الرحالة بيوتاً من الشعر وهم وسط بين الحماة والاضياف يرابطون باطراف القرى يرعون الغنم ويرعون الذمام . وكان الشيخ مرعي يقوم على الزرع بحذق وثبات وخازنهُ ملآى بالحبوب والثمرات ومرابطهُ عامرة بالانعام والمضيفة لا يقفل لها باب ولا يرفع من ساحتها خوان . وكان الشيخ مؤمناً ولكنهُ ترك الصلاة يعيش في دوّارهِ بسعادة ورخاء وهو متزوج من ابنة عمهِ ولهُ منها بنت وصبيان وكانت زوجتهُ رقية هادئة معتدلة وهي في الطاعة والقناعة والاقتصاد مثلهُ في الرجولة والغنى والكرم . كانت أُمية إنما يشعر قلبها بما لا يدركهُ عقلها تُشير بالرأي الصائب في حياة وتواضع وقد ورثت عن ابيها ثلاثين فداناً تركتها لبعلها وكانت بينهما مودة ورحمة

في خريف سنة ١٩٠٤ سافر الشيخ مرعي الى القاهرة في عمل . فلما بلغها نزل في فندق «الضيف الكريم» وفي اليوم الثاني زار اضرحة الاولياء وفي الثالث قصد وزارة الاشغال لمصالحهِ وفي الرابع اشترى تُحفاً وهدايا وعزم على الرحيل ولكنهُ احب ان يتمتع بما رآهُ في العاصمة فاقام اسبوعاً وفي كل يوم يستكشف ما يجب اليهِ طول الاقامة ثم انتزع نفسهُ وفيها حسرة على الانزواء في ركن من الريف وحرمانهِ التمتع بالسعادة والجمال، فصمم على ان يعود قريباً الى المدينة التي كان لمناظرها وحياتها روعة في نفسهِ فان الحركة والانوار ومظاهر الثراء من نخامة المباني الى سهولة العيش فعلت بمقلهِ النظري وطبعهِ الميال الى الترف فعل الشعلة بالفراش فجذبتهُ الى المدينة وحببتها اليهِ وقيدتهُ بقيود دقيقة متينة فاحب الجلوس على قارعة الطريق يعرض صوراً متحركة من المخلوقات الجميلة راكبة وراجلة، رافلة في حلل غالية متزينة بحليٍ فاخرةٍ ،وان يتغذى باطيب الطعام والذ الفاكهة

و يدخن التبغ المعبر في لفائف معوهة بماء الذهب وان يغشى اماكن اللهو البريء وغير البريء فشهد التمثيل للمرة الاولى وناهيك بوقعه في ذهنه الريفي فاستحقه الطرب فكان ينقبض كلما اسدل الستار ويضجر ، لولا ان تداركه جاره بان فصول الرواية لم تتم . وكان هذا سبب التعارف بينهما واذا بهذا الجار خليع خطر من ذوي الاخلاق المبهمة الذين اضاعوا ثروتهم الموروثة واخذوا يعيشون على هامش الحياة بالتطفل متذرعين بآثار النعمة ومتدرعين بسماجة لا يعرفها الا ذووها وهم على اكبر نصيب من اللؤم والفساد فتمكنوا بدهائهم من تمويه حقيقتهم باصباغ من الكياسة المصطنعة والادب المزيف كالالوان الزاهية تطلى بها الاحذية العتيقة

تحكك هذا الرقيع واسمه رفيق بك بالشيخ مرعي وسأله عن بلده فاطمأن اليه واسهب في الحديث عن قريته واهله وثروته وغايته من زيارة القاهرة ودهشته من محاسنها وكان يتكلم باخلاص وصدق ورفيق يبني في خفايا نفسه المظلمة قصور آمال عالية ويرسم في زوايا ذهنه خططاً للتمكن منه والاستيلاء على ارادته . ولو ان ناظراً رفع عن عينيه حجاب المادة واستشف ما كان يجول بخاطره في تلك اللحظة لرأى اخطبوطاً تلتوي خراطيمه كالافاعي السوداء حول الريفي البريء . فاظهر له انه من ذوي البيوت الكريمة وان له اتصالاً باعلى مقام ، ودعاه في فترة الراحة الى المقصف ، وقدم اليه مشروباً فاعتذر فنظر اليه الرقيع باشمئزاز حتى اوشك الريفي ان يذوب خجلاً ويجيب دعوة الساقي ليتقي غيظ هذا النبيل العربيد في المعاقرة لولا ان رفيقاً رأى من حسن السياسة ان لا يثخ وما زال يلاطفه حتى انتهى التمثيل فخرجا الى مطعم فخم فاكلا ما طاب ومضيا الى الفندق فعز على الشيخ مرعي ان يترك صاحبه فدعاه للمبيت معه فاظهر الخليع عجبه واوهمه بعظائم الامور اذا قضى بقية ليله بعيداً عن بيته واهله فعينا موعداً للغد . وعاد رفيق ادراجه قبيل الفجر بعد ان انفق كل ما كان معه مستبطناً بحذقه في نصب الشباك لصيد ذلك الطائر الدسم الساذج . اما الشيخ مرعي فقد حسبه من الاكابر وان بيده مفتاحاً لدواوين الحكومة وآخر للملاذ المحللة والمحرمة ومنذ تلك الصحبة تغيرت الدنيا في نظره فصار يقضي اياماً في القاهرة واخرى في الريف للتزود بالمال ينفقه مع صاحبه . وكان رفيق يفتح امام الشيخ مرعي ابواب التبذير فيقتنص من المال المبذول ما يستطيع فيدخره ، وينتفع بما تعلمه في حياته السابقة من ضروب الاستغواء والحيلة فاخذ يبغض اليه حياة الريف فاصبح الشيخ مرعي ينفر من زوجته ويزدريها ويعيب عليها عطلها

من المصوغ البرّاق ويخبرها عن نساء القاهرة بما اقنعها ان قلبهُ قد تحول عنها وان سفرهُ قد غيّر خُلقهُ وصرفهُ عن اولاده وكان شديد التعلق بهم واقلقتها كثرة طلبهِ المال وانفاقهِ بغير حساب . فلما احسّ بانها توشك تسألهُ عن اوجه الصرف وكانت موضع امانتهِ نقل المال المدّخر الى خزانةٍ خاصة ليتصرف فيهِ بغير رقيب

واذ كان الشيخ مرعي مع صاحبهِ في احد الاعياد رأى كثيرين من الاعيان يتبختون بثياب فاخرة بين شارع عابدين وشارع كامل فلفت رفيق نظرهُ الى عودتهم من التشريفات وحرّك في نفسهِ شهوة تقليدهم والاندماج في صفوفهم

رفيق : « لا وسيلة للوصول الى تلك المقامات العليا الاّ بالرتبة الثانية مع لقب بك. ان ثروتك ومكانتك بين قومك تجتان السعي في الرتبة واللقب فتخلص من لفظ « الشيخ » وتصير فوراً سعادة مرعي بك صبيح »

مرعي : « واي عيب من لفظ الشيخ فانا ووالدي وجدي دُعينا بهِ وتسوداه »

رفيق : « مثل الشيخ الذي يقرأ في القرافة او شيخ الثغر او شيخ المنصر ؟ ! »

مرعي : « يوجد شيخ القبيلة وشيخ البلد وشيخ الاسلام »

رفيق : « لا انت عربي ولا ازهري ولا عضو في لجنة الشياخات »

مرعي : « ألحق بيدك . لكن كيف السبيل ؟ »

رفيق : « اقرأ في جريدة المؤيد خبر الانعام على اربعة مشايخ اقل منك جاهاً بالرتبة الثانية وسوف يحضرون التشريفات » . . . ثم اسرّ اليهِ عبارة طويلة خشية ان يسمعها احد الجالسين ، فظهرت على وجه الشيخ مرعي علامة التعجب ثم ابرقت اساريرهُ وقال انتظرني يومين وفي الثالث . . ثم مال على صاحبهِ وهمس في اذنهِ بما شاء . . وبعد ذلك بشهرين نشرت جريدة المؤيد خبر « الانعام على سعادة مرعي بك صبيح عين اعيان صفط الشوك مركز شبراخيت بحيرة بالرتبة الثانية » فكان لهذا الانعام في نفسهِ رنة فرح يشبهُ فرح الجنود باعلان الهدنة !

وبادر سعادة البك الجديد بارسال نبأ يرقي الى بلدهِ حررهُ رفيق بيدهِ وتلاهُ مراراً ومرعي يستعيدهُ ويعرض في ذهنهِ وقع الخبر على اقاربهِ وجيرانهِ ومزارعيهِ حتى انعام الدوار حدثتهُ نفسهُ بان لهذا الانعام اثراً شديداً فيها ولا بد يشملها شعاع من نورهِ الوهاج !

اما رفيق فقد بلغ منهُ السرور لانهُ اصاب المرمى واصبحت مكانتهُ في قلب صاحبهِ

فوق كل مكانة فلا يخالف رأيهُ ولا يرد قولهُ . فانهمهُ غداة الانعام ان تغيير الزي اصبح واجباً وان العمامة والجبة من بقايا العصور الخالية وارسال اللحية قرينة البله والحذاء الاحمر علامة الفاقة . وفادهُ توّاً الى الطرزي فقاس قوامهُ وخاط لهُ ثلاث كسوات ومعطفاً ومثلها لرفيق ثم اشترى لهُ اقصة وار بطة من الحرير الملون وساعة ذهبية وخاتمين ثمينين وعصياً جميلة مقابض بعضها من العاج والاخرى من الذهب الوهّاج وامر بصنع أحذية مختلفة الالوان وطبع لهُ « ورقة زيارة » باسمهِ ولقبهِ الجديد. هذا وسعادة مرعي بك ينفق بسخاء ورفيق يأخذ سرّاً وجهراً و بمَنيهِ بظهورهِ يوم التشريفات حتى ايقظ بحذقهِ في الوصف ذلك الخيال الخامد الذي ورثهُ مرعي عن ابائهِ واجدادهِ

ولما عزم مرعي على العود الى بلده صمم رفيق على مصاحبتهِ ولشدّما دهش اهل البلد عند ما ظهر الركب وفي مقدمتهِ سعادة البك على ظهر مُهرة مطهمة وقد دفن العمامة وذبح اللحية ولبس الطربوش والسترة وبجانبهِ حميمهُ رفيق على حمار ابيض عال ، وخلفهما الاقارب والاصحاب فرفع نساء القرية عقيرتهن بالزغاريد كأنها في الفضاء اصواتُ الافاعي الحائرة ! وكان فرسان القرية يتسابقون امام الموكب و يتراشقون بالنشاب على نغمات « الفناجيلي » ونشيد المواويل على الناي والارغول . ولما توسط الموكب « شارع داير الناحية » اطلق « إسبتان دخيل الله » العربي واولاده بنادقهم في الهواء فاصاب طلق منها وجه فتاة صغيرة اسمها شوق بنت « ثعلب الدهشان » فافقدها البصر . . فدفع سعادة البك لاهلها مائة جنيه تعويضاً . ثم مُدّت الموائد ووفد المهنئون من ضفط الملوك وخربتا وميت غراب وكوم شريك وإبيان

كان لنشغول مرعي على زوجتهِ رُقيّة روعة فنظرت اليهِ بوجل ونظر اليها باحتقار . وكانت عادتها ان تقبّل يدهُ لدن عودتهِ فلم تجرؤ . ثم نظرت الى طربوشهِ « و بنطلونهِ » وبكت ، فانفعل الرجل غيظاً وخجلاً ، وقال لها « لماذا تبكين ايتها المرأة » فقالت « من شدة الفرح » وحاولت الضحك ولكن عينيها خانتاها وتفجرتا نبع دموع حارة تصحبها أنّات وزفرات ، يكاد المغرب الذي فارق عزيزاً وفقده ! وكان الاولاد على مقربة من امهم فلما رأوا هذا البكاء بكوا وجثموا تحت اقدامها ، فهاج غضب مرعي . وقال لها « ماذا جرى ايتها المرأة الجاهلة » فلم تجب فازداد غيظاً . فسمع بعض الاقارب صوتهُ فاطلوا من الباب فصرخ في وجوههم ونسب الى زوجتهِ انها جلبت عليهِ الفضيحة والخراب ثم اقسم يميناً بالطلاق ! واقسم ان لن يبيت في البلد ولن يهدأ حتى

يتزوج من اهل القاهرة . فصرخت رُقية من اعماق قلبها وولولت ، فانقض الشيخ مرعي على خزانته واخذ كل ما وجده فيها ، وخرج من الدوار كالمجنون فتبعهُ رفيق بك كأنهُ متربصٌ لهذا الحادث ، ولم يحاول تهدئة خاطره ، وامر الخدم باعداد الركائب . وسرى نبأ الطلاق في القرية سريان السُّم السريع فخفتت الاصوات وانفضَّ الناس ، وركب مرعي ورفيق ، وعادا ادراجهما في ضوء القمر الى محطة « صفط المغرك » . فانتهز رفيق فرصة هذا الخصام ليقطع كل علاقة بين مرعي واهله وبلده فزيَّن لهُ فكرة الزواج الجديد، وقال لهُ « ما انت خلصت من الست الريفية وطلقتها »

مرعي : « طلقة واحدة وهي بنت عمي ولا يهون عليَّ فراقها »

رفيق : « هذا صحيح ولكن طلقة واحدة مثل ثلاثٍ في نظر الناس ثم ان حياة الريف اصبحت لا تلائمك بعد الرتبة والقيافة والتمدين »

مرعي : « من يباشر الاطيان والزراعة؟ »

رفيق : « لم يخلق ناظر الزراعة والخولي عبثاً ! والامراء يملكون الشقائق و يعيشون في العاصمة » مرعي : « والست والاولاد ؟ »

رفيق : « تذهب الى بيت اهلها والاولاد في حضانتها »

فصمم مرعي ان يُبقي على البيت وان يزور البلد كلما استطاع ولكنهُ وافق صاحبهُ ظاهراً ليسعى لهُ في الزواج الجديد . . .

كان في الخلسية الجديدة بيت قديم يقطنهُ احد ارباب المعاشات المتهدمين وتربطهُ برفيق معرفة قديمة ولهُ ثلاث بنات كبراهنَّ في الثلاثين اسمها وجيدة شقراء شهلاء ذات مزاج لمناوي وهي التي اختارها رفيق لصاحبه ، رفيقة حياته الجديدة ، ولم يقصر في استدلال الخطبة والعقد والزفاف ، فدفع مرعي اضعاف ما تقتضيه تلك الحفلات الثلاث عدا اتعاب الخاطبة وثمن الشبكة ونفقة الاعياد . . كانت العروس فتاة حمكاً ، شديدة الاعجاب بنفسها تحب ذاتها اكثر من كل شيء وتنفق كل ما يصل الى يدها في الثياب والزينة ، لغرامها بالازياء المستحدثة المتقلبة ، اكثر من تعلقها بالمصوغ القيم فتفضل حذاء مذهباً على خاتم ثمين ، و بقدر شغفها بالمال ، لا تعرف لهُ قدراً فتبذرهُ بغير حساب في كل سبيل ما عدا سبيل الاحسان ! وكانت نهمةً لا تنثر دقيقةً واحدة عن ازدراد الحلوى بانواعها كانها تعوض في زواجها ما فاتها في طفولتها ولم تكن في قلبها عاطفة معينة فلم تحب اهلها ولا زوجها وكانت كسائر البنات تمني نفسها بالاقتران بشاب جميل غني ، فجاء نصيبها

في كهل من سراة الريف، فلم تفرح ولم تحزن، ولم تفكر قط في حوادث الدهر التي ساقت اليها هذا البطل الصامت. ولم تسأله قط عن بلده واهله لانها سمعت ان اباها المتهدم ضمن لها الاقامة في القاهرة. اما الشيخ مرعي فكان يكتم عنها امر زوجته واولاده طوعاً لامر رفيق بك لئلا تغضب تلك الزوجة المتمدنة التي كانت تطلب منه المال لنفسها ولاختيها ولنفقة المنزل ولامها، اذ كانوا يعدونها صراقاً لبنك مجهول فتحت لهم به الاقدار حساباً جارياً لاحد له! اما علاقة النسب فكانت خيالاً اوروبياً تُفسر بعكس ما يرى النائم فكان مرعي اذا شكا لرفيق كثرة الطلب يحذره لئلا ينسبوا اليه الشح ويقول له: «الافضل ان تلوم ناظر الزراعة والخولي» وما زال به حتى حصل منه على توكيل رسمي جعل له حق التصرف في المحصول وتأجير الاطيان والاستدانة لسد نفقات الزراعة وتعيين المستخدمين وعزلهم

وكان الشيخ مرعي قد تعلم القمار، والمضاربة وشرب الخمر. والتفت حوله عصبة من سماسرة السوء يحسنون له كل قبيح باشراف رفيق يستغلونه بما يفتحون له من ابواب الانفاق بغير حساب ويسهلون له الاستدانة على الاطيان بالربا ثم الرهن بالبنك العقاري ويقنعونه بان التأخر في سداد الاقساط من ابسط الاشياء بل انه مقصود بالذات في معاملة البنوك .. وبعد زواجه الجديد تقدم اليه حموه وقال له إن معاشه لا يكفيه، وانه يدفع نصفه اجر سكنه، وطلب منه في ادب ولين ان يشتري البيت من مالكه السيد عمر فرويز بالف جنيه فتأثر الشيخ مرعي ولم يذكر اثناء تأثره ما رواه رفيق قبيل النسب عن ثروة حميه! ولما خلا بزوجته تلك الليلة بالغت في مجاملته وطلبت اليه ان يشتري البيت وفي الصباح التالي تقربت اليه حماته وترددت بان قدمت القهوة بيدها، وتمنت لو يشتري البيت ولما قابل رفيقاً عصراً في قهوة «ماجنيك بار» فاتحه في الامر فحبذه بتعديل وهو تحرير العقد باسم وجيده ومباغتتها به فتفرح ويكبر قدره في نظرها. وقام رفيق بالوساطة بين فرويز ومرعي حتى تمت الصفقة وتحرر العقد باسم وجيده واهداه اليها وكان الامر على غرة من ابيها ووالدتها واختيها فبهتوا جميعاً. ولم يشكره احد! ولكنه لاحظ بسلامة نية ان مكانة رفيق ارتفعت في نظر وجيده فكثر تردده كأنه احد المحارم الاقربين. ولم يلبث حموه ان مرض فاحضروا لعلاجه طبيباً اختصاصياً فرر تذكرة الدواء ثم شهادة الوفاة كالعادة المألوفة، وكان شراء المنزل كان آخر آماله فلما تم على غير رغبته انطفأ سراج حياته الضئيل. فحضر رفيق وخاطب مرعي في وجوب تجهيز المتوفى من ماله فلم يتردد. وطلبوا منه في اليوم الثاني ثمن ثياب الحداد لجميع اهل الدار، وفي

الثالث اعدوا على حسابهِ الفطير والنُقل والفواكه . ثم خاطبوهُ في اتعاب النادبات وثمن «تركيب» من الرخام لقبر المرحوم. وبعد الاربعين تقدم رفيق الى مرعي بك بشابين وسيمين عليهما آثار نعمة قديمة واخبرهُ انهما حفيدا « الخربوطلي باشا حاكم ولاية آضنه » وان لهما قضية شرعية بشأن اوقاف المرحوم جدهما التي تقدر بآلاف الافدنة وانهما جاءا يخطبان نفيدة ونعيمة شقيقتي وجيده هانم ، ثم افضى اليهِ بان هذا النسب يقربهُ من الامراء ويربطهُ بالبيوت القديمة ويجعل كلمتهُ نافذة في الحكومة ، وقد يصيب نصيباً من تلك الاوقاف المتسعة. فرحب مرعي بك بهما وقبل الخطوبة واسرع رفيق في عقد الزيجتين ووحّد حفلتي الزفاف ولم يدفع الفتيان النبيلان صداقاً ولم يبذلا نفقة لان قضايا الاوقاف لم يفصل فيها ، ولم يرَ رفيق بك بأساً في اقناع مرعي باقراضهما قرضاً حسناً وانتظار الميسرة . فاتفق الشيخ مرعي على الفرح كما اتفق على المأتم. ولما زُفّت الشقيقتان الى الشقيقين عاش الجميع عيشة البذخ والدلال في كنف سعادة البك زوج الشقيقة الكبرى

(التتمة في الجزء التالي) محمد لطفي جمعه المحامي

رباعيات فرحات

عن قريب يظهر ديوان الرباعيات لالياس فرحات . وقد خدمني الحظ بأن قرأتهُ فاحببت نشر شيء منهُ لقراء المقتطف مع ذكر الداعي الى نظم بعض الرباعيات

الياس فرحات حرّ الطبع مثل ابن بلدتهِ المرحوم الدكتور شميّل وهو مثلهُ ايضاً في اكثر فلسفتهِ او بالحريّ في نظرهِ الى الحياة

وحريّة طبعهِ كثيراً ما تجيء ممتزجة بشيء من النكتة اللطيفة ، من ذلك انهُ تعرّف الى آنستين بارعتين في الجمال ممتازتين في الادب وكان يومئذٍ عازباً فلم يدرِ الى ايتهما يميل بل كان يشعر انهُ يميل الى الاثنتين ، فنظم البيتين الآتيين وانشدهما في حضرة الآنستين :

لو كنتما مثلي وكان الامر يُلقى في يَدي
لجمعت بينكما على دينِ النبيّ محمّدِ

واما رباعياتهُ فكلها جديدة انتقد فيها ما رآهُ وسمعهُ وتألم منهُ . ولأكثرها اسباب او حوادث شخصية حملتهُ على نظمها. من هذه الاسباب انهُ نظر الى اختلاف المذاهب والنزاع